نفحةٌ مكيةٌ

٢٥/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

ليس شيء أحبّ إلى القلب من تلك اللحظات التي يُوَفّقُ فيها لزيارة المسجد الحرام، والتمتع برؤية الكعبة المشرفة، فإنها ليست مجرد زيارةٍ للبيت الحرام، وإتمامٍ لمناسك الحج أو العمرة، إنها أبعدُ من ذلك!

لقد طاف بي طائفٌ من الذكريات التاريخية حين زرتُ مكةَ المكرمةَ شرّفها الله -في الأسبوع الماضي- بل يَرِدُني هذا كلما زرتُ البيتَ الحرام، وتساءلتُ وشريطُ الذكريات يمرُّ كلمح البصر، أَنْظُرُ هنا وهناك، وأقول في نفسي: هنا كان صناديدُ قريش، وهم يجتمعون في منتداهم بجوار الكعبة؛ ليمارسوا عادتهم في السخرية والصد عن الاستماع لهذا النبي الجديد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وهناك لاحتْ لي صورةُ قيامِ أشقاهم ليُلقي سلا الجزور على ظهره الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ساجد، ولم يجد له في تلك الساعة مُعينًا من الناس إلا ابنته الصغيرة فاطمة، التي لم تملك حينها إلا إرسال رسائل الشتم لهم على سوء صنيعهم! أما هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يَرُعْهم إلا وهو يرفع يديه قائلًا: «**اللهم، عليك الملأ من قريش، اللهم، عليك أبا جهل**

ابن هشـــام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأميّة ابن خلـــف، أو أبي بن خلف»[1]، فأصابتهم الدعـــوةُ؛ فجمعهم الله شّر مجمَع في قليب بدر، وهم جيف!

وحـــين وقفتُ على الصفا، تذكرتُ صعـــودَه ﷺ عليه مناديًا ذلك النداء المشـــفِق: «يا صباحاه»! فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بنـــي فلان، يا بني فـــلان، يا بني عبـــد مناف، يا بني عبـــد المطلب»! فاجتمعـــوا إليه، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلًا تخرج بسَـــفْح هذا الجبـــل؛ أكنتم مصدِّقيّ؟**» قالوا: ما جرّبنا عليـــك كذِبًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يَدي عذابٍ شـــديد**»، قال: فقال أبو لهب: تبًا لك! أما جمعْتنا إلا لهذا؟! ثم قام، فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد:١][2].

سبحان الله! كم هي وقاحة عمّه هذا الذي قابله بهذا السوء! أَمَا إنه لو ســـكت لكان أهون، ولكن: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[المائـدة:٤١]، فاستمر هذا الشـــقيُّ أبو لهب محرّضًا على ابن أخيه، بل ومتتبعًا للناس في موسم الحجّ محذِّرًا من اتباعه!

فقلـــتُ في نفسي -وأنا أرى أمامي مســـلمين من الصـــين، وإفريقيا السوداء، وأوروبا، وشرق آســـيا، والهند، فضلًا على بقية العرب-: أين أنت أيها الشـــقي؟ لِترى كم هم الذين يقولون: أشـــهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله؟! قالوها وهم لم يَرَوه، وأحبّوه، ولم تكتحل

(١) رواه البخاري (رقم٣١٨٥)، ومسلم (رقم١٧٩٤)، واللفظ للبخاري.
(٢) رواه البخاري (رقم٤٧٧٠)، ومسلم (رقم٢٠٨).

عيونُهم بلقياه، ولو طُلبتْ أرواحُهم فداء له لقدّموها زرافاتٍ ووحدانًا! أيـن أنت لتدرك هذه الحقيقة التي وعـد اللهُ بها -ومن أصدق وعدًا منه سـبحانه-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣٢-٣٣].

لقد كانـت منتديات قريش أول البعثة تعـجّ بمنكر القول والعمل، وبرمْي هذا النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنقائص، ولم يمض على هذا سوى زمنٍ يسـير حتى صارت جنبـاتُ البيت الحرام تعـجّ بحِلَق الذِّكر التي لا يخلو درسٌ فيها من الإعلان لله بالتوحيد، ولنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة!

إنها مشاعر عابرة، لكنها تورث في القلب من المعاني الشيء الكثير..! إنها مشـاعرُ تزيد الإيمان، وتعزز اليقين بأن ديـن الله ظاهرٌ، وإن كاد له أعداؤه، وبـأن النصر له وإن حُورِب، ولكن مـن الذي يركب مراكب الشرف في نصرته والدفاع عنه، ونشر قِيَمِه ومبادئه؟

إن كل مسـلمٍ يلتزم بالإسـلام حقًّا، قولًا وعملًا، مظهرًا وسلوكًا؛ هو مسـهم في ذلك، فالنصرُ ليس بالسيف والدبابة فحسب، بل هو نصرٌ تتنـوع صورُه، إنه دينٌ ينتصر بالقيم والأخلاق -كما انتصر بها (الصادق الأمـين) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وينتصرُ بالعلم النافـع والعمل الصالح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾[التوبة:٣٣]، وينتصرُ بالسـيف -إذا وُجد سـببه- فهنيئًا لمن نصر اللهُ به دينَه، والويل لمن صدّ عنه بقوله وفعله، أو حاربه بماله وإعلامه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[الأنفال:٣٦].